د. محمد دودح

الباحث العلمي بهيئة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد؛ فجوابا على السؤال عن مدى التطابق مع الواقع لوصف القرآن الكريم للكون الممكن النظر بتعبير السماء جمعًا وإفرادًا مع الأرض وإمكان بلوغ القمر أقول مستعينًا بالعلي المُقتدر:

يرجع الرأي بعدم إمكان بلوغ القمر للتوهم بتقيد دلالة لفظ "السماء" في القرآن الكريم جمعًا وإفرادًا بعالم غيبي ذكرته روايات المعراج لا يتفق مع عالم الأجرام السماوية المُعاين ويستوجب التمييز مع التسليم والتفويض بغير تكييف، ونصوص الكتاب العزيز قاطعة الدلالة على تعلق لفظ "السماء" بكيانات حسية مُعاينة للأمم فوقهم مقابل جرم الأرض تحتهم، ولفظ "السماء" في القرآن الكريم جمعًا وإفرادًا لا يمكن قصره على معنى واحد وإنما يشير لشيء في العلو يمكن معاينته ويفسره السياق الذي يرد فيه، قال سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز (رحمه الله تعالى): "ذكر جماعة من المفسرين.. في هذه الآية: "وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَآءِ مَآءً" البقرة ٢٢؛ أن المراد بالسماء هنا هو السحاب سمي بذلك لعلوه وارتفاعه فوق الناس، ومن هذا الباب أيضا قوله تعالى..: "مَن كَانَ يَظُنّ أَن لّن يَنصُرَهُ اللهُ فِي الدّنْيَا وَالاَخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَآءِ ثُمّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ" الحج ١٥؛.. قال المفسرون معناه فليمدد بسبب إلى ما فوقه من سقف ونحوه فسماه سماء لعلوه بالنسبة إلى ما تحته، ومن هذا الباب قوله تعالى: "أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَآءِ" إبراهيم ٢٤،.. فقوله هنا (في السماء) أي في العلو، والأدلة في هذا الباب في كلام الله تعالى وكلام رسوله محمد صلى الله عليه وسلم وكلام المفسرين وأئمة اللغة على إطلاق لفظ السماء على الشيء المرتفع كثيرة"[١]، والقرآن الكريم يُحدثنا في جملة مواضع عن سماوات فيها كيانات قابلة للنظر؛ في معرض الاستدلال بمظاهر الكون المحسوس كآيات معاينة تدعو إلى الإيمان يقول العلي المُقتدر: ﴿قُلِ انظُرُواْ مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لاّ يُؤْمِنُونَ﴾ يونس ١٠١، وفي معرض الاستدلال بالمعاينات في الكون المحسوس على صدق القرآن الكريم يقول جل وعلا: ﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللهُ مِن شَيْءٍ وَأَنْ عَسَىَ أَن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾ الأعراف ١٨٥، ومثلهما في الحديث عن الكون الممكن النظر قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوَاْ إِلَى السَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيّنّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ. وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ ق ٦و٧، ولك إذن أن تستنبط باطمئنان أن القرآن الكريم يُعَبِّر عن الكون الممكن النظر بالنسبة للمشاهد من سطح الأرض بتعبير السماء جمعًا وإفرادًا مع الأرض، وهو تعبير جامع يظل مطابقًا للتصور البشري لطبيعة الكون المحسوس مهما اتسعت المعرفة بمكوناته ومدى سعته وأبعاده، قال فضيلة الشيخ الطاهر بن عاشور (رحمه الله تعالى): "قد عدَّ الله تعالى السماوات سبعًا وهو أعلم بها وبالمراد منها إلا أن الظاهر الذي دلت عليه القواعد العلمية أن المراد من السماوات (آفاق) الأجرام العلوية العظيمة.. ويدل على ذلك أمور: أحدها أن السماوات ذكرت في غالب مواضع القرآن مع ذكر الأرض.. فدل على أنها عوالم كالعالم الأرضي.. ثانيها أنها ذكرت مع الأرض من حيث أنها أدلة على بديع صنع الله تعالى فناسب أن يكون تفسيرها (آفاق) تلك الأجرام المشاهدة"[٢].

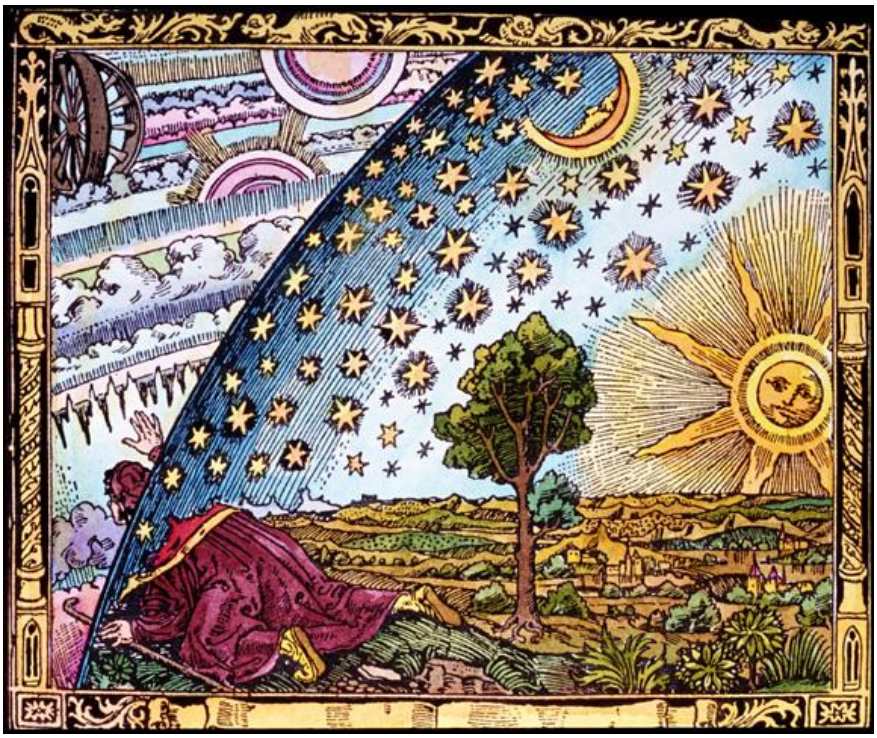

لم يزد الكون في المفهوم الغربي في القرون الوسطى عن أفلاك الكواكب دون دائرة قريبة للنجوم الثوابت تستند على أطراف الأرض المسطحة حتى أن راعي غنم قد بلغ نهاية الأرض وأطل برأسه خلفها ليتطلع إلى ما وراء السماوات من بكرات تدير دوائر الأفلاك ودائرة النجوم الثوابت.

وقد كان الكون في تصور الحضارات بين النهرين لا يزيد في البعد عن آفاق خمسة كواكب مع الشمس والقمر حتى أن إبراهيم عليه السلام قد استدل بها على قدرة المبدع المقتدر وحكمته في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْاْ كَيْفَ خَلَقَ اللّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقاً. وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنّ نُوراً وَجَعَلَ الشّمْسَ سِرَاجاً﴾ نوح ١٥و١٦، وكان برج بابل مكونًا بالفعل من سبع طبقات يرمز كُلٍّ منها إلى جرم سماوي، وبقيت أسماء أيام الأسبوع في اللغات الأوروبية أثرًا شاهدًا على صدق نبأ القرآن الكريم؛ فالأحد Sunday يوم الشمس Sun والاثنين Monday يوم القمر Moon وكذلك بقية الأيام، ومع البيان بأن ما في السماوات مُعاين فقد فسرها الأعلام بالأفلاك أي الطرائق المميزة بما فيها من أجرام، قال الألوسي (رحمه الله تعالى): "أجمعوا أن السماوات التي هي الأفلاك لا تُرى لأنها شفافة.. لا تحجب الأبصار عن رؤية ما وراءها من الكواكب"[٣]، ولك إذن أن تصف بنية الكون بما يتفق مع المعرفة الحديثة باتساع آفاقه جامعًا الكواكب في الطبقة الأدنى مع الشمس والقمر دون بقية الآفاق المميزة بالنجوم العظيمة الحشود والأبعاد مستشهدًا بقول العلي المقتدر: ﴿إِنّا زَيّنّا السّمَآءَ الدّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ﴾ الصافات ٦، وهو وصف جامع استثنى النجوم وجعلها فوق الكواكب بينما لفظ النجم ولفظ الكوكب في مفهوم لغة عرب التنزيل سواء، وحتى القرون الوسطى كان المفهوم السائد أن النجوم ثوابت بإطلاق في أفق واحد قريب سموه دائرة النجوم الثوابت Fixed Stars، وفي هزلية دانتي Dante's Comedy تصعد الروح بعد التطهير في جهنم إلى جبل الأعراف Purgatory تنتظر فتح الأبواب لتنفذ للفردوس خلال تسع سماوات تميزها السيارات ودائرة النجوم الثوابت ودائرة شفافة، ولكن القرآن الكريم يُميز في التعريف بين النجوم والكواكب ويترفع عن الأوهام ويقدم الدليل على التنزيل في بيان عظيم أبعاد النجوم وتبدل مواقعها على الدوام في قول العلي المقتدر: ﴿فَلاَ أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النّجُومِ. وَإِنّهُ لَقَسَمٌ لّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ الواقعة ٧٥و٧٦، وبالفعل تنتظم حشود النجوم في آفاق دون أقصى ما يُمكن أن يبلغه نظر باستخدام المراصد الراديوية والمسمى أشباه النجوم Quasars، وتنتمي مجموعتنا الشمسية إلى مجموعة نجمية محلية تتبع حشدًا نجميًّا أكبر Super-Cluster يتبع مجرتنا Milky Way التي تتبع بدورها مجموعة مجرية محلية تتكون مما يربو على ٣٠ مجرة تتبع حشدًا مجريًّا أكبر.

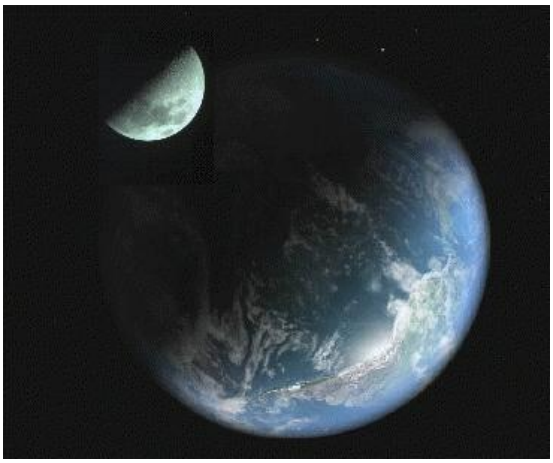

والقمر إذن في هذه الأبعاد الشاسعة في الكون لا يقع إلا في ضاحية غاية في القرب من كوكب الأرض على بعد يُمكن للإنسان بلوغه إذا امتلك التقنية ليستثمر ثروات طائلة كأول محطة لاستعمار الفضاء ويحقق آمالا صنعها خياله قبل امتلاكه سلطانًا ومقدرة، فبعد القمر حوالي ٣٨٤ ألف كم وهو حوالي ٩ مرات قدر محيط الأرض ويزيد بعد الشمس عنه بما يفوق حوالي ٣٨٤ مرة، والعقبة الأساسية في بلوغ القمر والكواكب إذا وفرت التقنية سبل الحفاظ على الحياة والاتصال هي بلوغ سرعة دفع صاروخي تتجاوز قيمة سرعة الهروب من الأرض (١١,٢ كم/ثانية) وإلا عادت المركبة وتهشمت مثل كرة تُقذف عاليًا فتعود لتسقط على الأرض، ويمكن للمركبة نقل حمولات ضخمة بسبب فقدان الوزن خارج جو الأرض وتستطيع الاندفاع ذاتيًا بلا وقود بنفس السرعة طالما تعادل تأثير الأجرام عليها وبلغت مجال تعادل الجاذبية والذي شاع تسميته بانعدام الجاذبية Zero gravity وإن كانت الجاذبية لا تنعدم في الفضاء، وقد تغلبت التقنية اليوم على تلك العقبة بالفعل ودفعت بعدة أقمار صناعية لمداراتها، وبحسب ما بلغته التقنية اليوم تبلغ الرحلة إلى القمر يومين ونصف، ومنذ أيام يسيرة أعلن مدير مركز البحوث الفضائية الروسية البروفيسور أناتولي كوروتييف في ٣١ يناير عام ٢٠٠٨ أنهم يعكفون حاليا على وضع التصميمات لقاعدة صناعية على سطح القمر هدفها استخراج الثروات الدفينة، وقد تغلب السوفيت على حاجز جاذبية الأرض من قبل في عام ١٩٦١ وأطلقوا جملة رحلات غير مأهولة جلبت عينات من صخور القمر، ونجحوا في الستينيات في إطلاق جملة رحلات غير مأهولة إلى كوكب الزهرة وأطلقوا عام ١٩٧١ رحلة مماثلة للمريخ، والتحمت سفينة سوفيتية عام ١٩٧٥ مع أخرى أمريكية وقام رواد الفضاء من كلا البلدين بالعبور نحو سفينة البلد الآخر.

ومن الناحية العلمية إذن يمكن نظريًا مع توفر التقنيات اللازمة بلوغ الفضاء خارج الغلاف الجوي للأرض والوصول إلى القمر والكواكب وبناء مدن فضائية ومحطات تستزرع الفضاء وتوفر مراعي لا تنضب مستفيدةً من ضوء الشمس، ولكن فنون الدعاية قد تصطنع الحدث تحقيقًا لأغراض سياسية كتغطيةً الإخفاقات حتى اتهم المصور الفرنسي فيليب لورو بعض صور رحلات أبوللو بالتزوير بناءً على دراسة الظلال والتمس العذر لوكالة ناسا بالقول في كتابه أنها تعمدت استبدال الصور الحقيقية بأخرى مزيفة التقطت من سطح الأرض لممثلين إرضاءً لدافعي الضرائب ومنعًا لاستفادة المنافسين، وقال التليفزيون الفرنسي أن ناسا أقرت بالفعل بأن حوالي عشرين صورة من أصل آلاف قد أثارت بعض التساؤلات، ولو كانت رحلات أبوللو قد بلغت القمر بالفعل فقد سبقهم إلي إمكان ذلك سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز (رحمه الله تعالى) بقوله: "قد تأملنا ما ورد في الكتاب العزيز من الآيات المشتملة على ذكر الشمس والقمر والكواكب فلم نجد فيها ما يدل دلالةً صريحةً على عدم إمكان الوصول إلى القمر أو.. الكواكب؛ وهكذا السُنَّة المُطهَّرَة لم نجد فيها ما يدل على عدم إمكان ذلك"[٤]، ولو كان القرآن صنعة بشرية ما أصاب في كل نبأ في مجالات علمية متنوعة، يقول العلي المُقتدر: "أَوَلَمْ يَنْظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللّهُ مِن شَيْءٍ وَأَنْ عَسَىَ أَن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ" الأعراف ١٨٥.

---

[١] مقال منشور حول الوصول إلى القمر.
[٢] التحرير والتنوير ج١ص٣٨٥.
[٣] روح المعاني ج ٩ص١٧٨.
[٤] الأدلة النقلية والحسية على إمكان الصعود إلى الكواكب.